



ليلة تحت أضواء الشموع

— ربح المطر-السعودية —

فجأة خيم الظلام على بيتنا، كان الأمر بلا مقدمات، ولا سابق إنذار! كشافات الجوالات بدأت تعمل هنا وهناك، وهرعت إلى المحوّل للتأكد من أن الخلل ليس الأخرى!.

الفتيات والنساء والأطفال يهرعون متسابقين للبحث عن الشموع، أو أي مصدر للإضاءة يعمل على طاقة البطارية في كل ركن من المنزل؛ بعد أن تأكد لهم أن المسألة ستطول. وانقطعت صلاتنا عن العالم الخارجي تماماً، فلا تلفاز، ولا جوالات، ولا أخبار. المصابيح لا تعمل لأن البطاريات لم تُشحن؛ فلا مناص إذن من الشموع!.

جميع من كانوا في الأدوار العلوية نزلوا للدور الأرضي.. تجمعنا هناك.. وكان علينا حمل الأطفال النائمين إلى هناك أيضاً.. توفيراً لأضواء الشموع، وربما.. بحثاً عن أكبر قدر من الأمان؛ ليس أقلها قصص الجنّ والعفاريت التي تنشط في مخيلاتنا تحت جنح الظلام!!.

كان البيت أشبه بخلية نحلٍ لا تهدأ.. الكل يعمل، والكل يساعد الكل!!

بعد أن استقر الأمر، وهدأت الأمور قليلاً أخذت التحليلات بيننا تعمل عن أسباب هذا الانقطاع؛ فالأمر ربما كان سياسياً عند بعضهم؛ بينما هو خلل وسوء تنظيم عند



آخرين، وما بين الرأيين آراء أخرى يمكن أن تصل لداعش والحوثي!..

أجمل ما في الموضوع أننا كنا نتحدث معاً، ونام معاً تحت أضواء الشموع، الصغار يسمعون للكبار، والكبار ينصتون بعضهم لبعض باهتمام، حتى الصغير يعلن رأيه بلا خوف، ولا موارد.

كان بعض الصغار سألني: أنتم أول كان عندكم كهرباء؟

وكيف كانت الحياة بلا كهرباء؟ وكيف كنتم تعيشون بلا (نت) ولا تلفاز؟ حين حدثته ذات نهار عن أديسون مخترع المصباح الكهربائي!..

لا بأس كل هذه المخترعات عالية عليك يا أديسون!! حسناً، أظن أن صغيري يعتقد أن بعضنا قادمون من العصر الحجري!.

وأعتقد أنه حان الوقت للصغير أن يعرف الإجابة بطريقة عملية؛ ثم بدا لي أن ألقى سؤاله على بعض الكبار بيننا الذين تسارعوا لإعلان ذكرياتهم الشحيحة؛ عن زمن يروونه سيئاً ومتعباً في كثير من جوانبه؛ بينما يراه آخرون لم يعيشوا سوى طفولته، أو زهرة شبابه.. جميلاً!!.

سأل بعضهم: هل هناك في هذا العالم من يعيش بلا كهرباء؟ وهل يمكن الاستغناء عنها حقاً؟ أجبت: الإسكيمو.. أدغال أفريقيا.. مجاهل آسيا.. قرى وهجر في كل مكان في العالم مازالت تعيش بدونها! وتُكيّف حياتها بدونها!.. بل مازال بعضها فيما يسمى بالعالم الأول يرفض مجرد دخولها لئلا تقسد عليه حياته،

إذن يمكن للإنسان أن يعيش من دونها.. سألت بدوري: هل وجودها ضرورة في حياتنا أم ترف؟

لماذا ننظر لاستعمالها بأنه مدنيّة وحضارة،

وانعدامها تخلف وبداءة؟ بينما هي تسرق منا أجمل ما فيها؛ تسرق قلوبنا وترمي بها بعيداً؛ تسرق الدفء والقرب، حتى الأحلام من عيوننا... بل تسرق الحياة من الحياة!.. وتحولنا إلى مجرد آلات مستهلكة.

مدنيّة خلقت لتجعل حياتنا رائعة؛ لكنها تفسد حياتنا، وذوقنا، وإنسانيتنا، وتعرّك بهجتنا بها؛ ولا نشعر معها بقيمتها أو قيمتها.

تابعنا السمر وعرجنا على بلاد كثيرة من بلاد المسلمين أعيدت إلى عصور مضت كبلاد الشام والعراق بغير اختيارها، وهي التي كانت منارة العلوم للعالم، ذلك أن الحرب حين تأتي تنزع فتيل الحياة؛ فلا كهرباء، ولا ماء.. فضلاً عن حقوق كانوا يطالبون بها.. فأمسوا عراة منها ومما هو أبسط منها.

سأل أحد الصغار: كيف يتدبرون حياتهم بلا كهرباء؟

رد آخر: كما نتدبر أمرنا هذه الليلة من دونها. قلت:

مع فارق بسيط.. أنهم يعيشون بلا سقف، بلا دفء، بلا أمن، تحت لهيب النار، وفي كل ليلة يفقدون بعضاً منهم، وقد يذهب الكل!!.

نمنا باكراً تلك الليلة تقريباً، والمدينة ماتزال تقبّع تحت الظلام؛ لكن سؤال أحدهم ظلّ يرنّ في أذني: متى ينتهي هذا الظلام؟..

استيقظت فجراً، واستيقظ الجميع؛ لأجد الكهرباء قد عادت، لتعود معها حياتنا المألوفة!..

سألت صغيري في اليوم التالي: إن كان يتمنى عودة ليلة كليلّة البارحة؟.

أجابني وهو ابن هذه المدنية بقضها وقضيضها: ليتها تتعاد مرة ثانية!!

لا أشك أن صغيري سيعتبر ليلته تلك.. ذكرى جميلة.. لزمن جميل ■